الحياة من جديد

محمد علي وهبة*

رجفة منعشة تَنْساب في قلبي مع رؤيتي إياها. تَظْهر أمامي فجأةً بكامل كيانها ونبض قلبها. ينساب صوتي بأغنية جميلة مصحوبة بأنغام ساحرة لا أدري كيف استطعتُ أن أرتجلها بكلّ هذا الجمال، وأنا أشقّ بسيارتي طريقَ الصحراء الخالي الطويل متوجِّهًا إلى مقرّ العمل، وبسطةُ السماء الواسعة المصبوغة بلون غيوم الشتاء تبدو كما خلاء الصحراء تدبّ فيها أنفاسُ الحياة. ارتفعتْ قدمي قليلاً عن ضاغط البنزين في السيارة، فأحسستُ بها تتهادى ببطء كأنَّها تشاركني الاهتزازَ الشفيفَ مع إيقاع اللحن الذي أدندن به.

قلتُ ونظراتي تسافر في ملامح وجهها المسافرة معي:

ـ ما أحلى الإحساسَ بالجمال.

أدرتُ مفتاح المذياع، فانساب صوتُه الآتي عبر الأثير بنشرة الأخبار:

ـ هذا وقد أصبح مصيرُ البشر في الميزان!

لم أَسْمع النشرةَ من بدايتها، لكنَّني فهمتُ ما يَقْصده المذيع كان واضحًا لي من مدلول كلماته أنَّه يتحدّث عن الحروب المقبلة وما تسبِّبُه من قلق وتهديد

ـ .. ما يربو على نحو مائة مضخة نووية...

تنتابني حالةٌ من الفزع.

ـ ... موجَّهةٍ نحو أهداف معادية...

تمنيتُ الرجوعَ إليها.

ـ . . ويمتلئ الفضاءُ بمنصّات الصواعق الحربية الساحقة التي.

أغلقتُ مفتاحَ المذياع بسرعة، ورياحٌ عاصفةٌ من الأحاسيس المتعارضة تَهْدر في صدري مع معاودتي الانطلاقَ بسيارتي بأقصى سرعة من جديد، ونظراتي تسافر في لون الغيوم الداكنة في السماء.

كنتُ مصمِّمًا على العودة إلى الحالة المنعشة الأولى. وبينما كنتُ مستغرقًا في استحضار ملامح وجهها، انقطعتْ فجأةً كلُّ الخيوط الأثيرية الشفافة بيني وبينها مع انفجار أحد إطارات السيارة. اضطررتُ إلى التوقف لإصلاح العطل. أحضرتُ الإطار الاحتياطي وجهازَ الرفع الذي قمتُ بوضعه أسفلَ طرف السيارة ثم قمتُ بتثبيت حلق المفتاح الحديدي الصغير في رؤوس الصواميل المدفونة في الوجه المعدني للإطار المعطوب، وفصلتُها واحدةً بعد الأخرى.

تغيّر وجهُ الجو فجأةً إلى بريق السطوع مع ظهور وجهها الذي غطّى جانبًا من وجه السماء، وامتزج رحيقُ طيفه الضوئي برحيق طيف وجهها. سقط المفتاحُ المعدني من يدي محدثًا صوتًا رقيقًا على الأرض. واشتعل بريقٌ ساحرٌ في نظراتي. كان بريق وجهها الممتزج بأطياف السماء يغوص في نبض قلبي، طائرًا بروحي في نبض رمال الصحراء وروح الأحجار وأنفاس ضوءِ النهار في هدوء مهيب. تمنيتُ أن أرى العالم بأكمله متوحِّدًا في لحظات حب عليائي، معلنًا اكتشافَه لخلاص أبديّ من نوع جديد.

كان المكان مفتوحًا من كل الجهات من حولي، لا أثر فيه لإنسان أو طير أو حيوان أو سيارات، يتردّد في جنباته لحنٌ غيبيٌّ بإيقاع ساحرٍ، آسرٍ، يتناغم مع نبض قلبي ووهج أنفاسي المصبوغةِ بلون الضباب الشفيف.

أحسستُ فجأةً بشخص غريب يظهر أمامي من بعيد، يشقّ أشرعةَ الغيوم، وتفصيلاتُ ملامحه تتّضح مع اقترابه. يرتعش الهواء مع حركات ذراعيه وخطواته المسرعة وهو يندفع نحوي. أصابني الخوفُ مع اقترابه برغم ابتسامته الهادئة. عندما اقترب أكثر، اكتشفتُ أنَّه أبي الذي فارق الحياةَ منذ سنوات. بقيتُ أتأمّله مذهولاً، وهو ينظر إليّ بحنان ويقول:

---

* ـ محام بالقضاء العالي ومجلس الدولة بالقاهرة له ثلاث مجموعات قصصية. شارك في حرب أكتوبر حاز جائزة نادي القصة بالإسكندرية (١٩٧٧) وجائزةَ نادي القصة بالقاهرة (١٩٧٨) وغيرهما

ـ استمرَّ كما أنت!

لم أعرف مقصدَه بالضبط. عاد صوتُه مختلطًا بأنفاسه الواهنة، وهو يقول لي:

ـ لا تتوقفْ عن شحن قلبك بالحب!

ثم قال ودموعُ الفرح تترقرق في عينيه:

ـ تمنيتُ أن أكون مثلك!

ورأيتُ دمعاته تنسال على خديه وهو يقول:

ـ الحب يحرّر الإنسانَ من أخطاء البشر!

امتلأ قلبي برعشات رحيمة منعشة، وأنا أتذكّر حبّه وتدليله لي في طفولتي. ودعوتُ له بالرحمة، ودمعتان ساخنتان ترتعشان في عينيْ.

بعد اختفائه، وقفتُ مبهوتًا ببريق وجهها الهادئ والمشعّ بجمال الكون. لم أتمالكْ ضربات النبض في قلبي وأنا أتأمّل استضاءةَ الغيوم بسطوع اللون الفضي الساحر للنهار. تبعثرتْ أحاسيسي في مساحات الفضاء الشاسعة، وتركّزتْ حول وجهها، وانفجر شعاعٌ متوهّجٌ من النبض في قلبي، تحوّلَ إلى ألف حلمٍ وردي على خديها اللامعين رأيتُها تبتسم لي دون أن تَنْطق. تبادلنا البسمات وتعبيراتِ النظرات الناطقة بآلاف المعاني المنعشة.

ـ أرى في وجهكِ آثارَ خوف!

قالتها لي ببريق نظراتها

ـ وآثارَ حزنٍ كبيرٍ في عينيك!

ثم قالت:

ـ نَمْلك أجملَ ما في الوجود. . لا ينقصنا شيء!

كنتُ أودّ أن أقول لها، وعيناي تَنْغلقان على جمال صفحة الوجود من حولنا:

ـ تَنْقصنا المشاركةُ مع كائنات الدنيا في أداءِ طقسٍ بهيج للحب!

لكنّني لم أنطق. أحسستُ بالكلمات نفسها تَنْتقل إليها وهي تقرأ ملامح وجهي. وفوجئتُ بها تشير بذراعها إلى بعيد، وصوتُها الجميل يَسْحر أحاسيس المكان بأنغامه الدافئة وهي تقول:

ـ ها هم يأتون للمشاركة!

نظرتُ إلى حيث تشير. رأيتُ الملايينَ من البشر يظهرون من بعيد، ويقتربون نحونا في جماعات كبيرة، بأكتاف متلاصقة، كأنَّهم كيانٌ واحدٌ لا يعرف الفرقةَ والانفصال. بعضُهم يَحْمل الورود، وآخرون يَحْملون النباتات اليانعة الخضراء، تصاحبهم أسرابٌ هائلةٌ من الطيور والدوابّ كالخيل والأبقار والماعز. يمتلئ خلاءُ الفضاء بأصواتهم الصادحة بالتسابيح الشجية، ووجوهُهم تبدو منشرحةً مستبشرةً بالخير. رأيتُ الملامح الآسيوية والإفريقية والأوروبية في وجوههم. أحسستُ بأنّ العالم الأرضي قد تحرّر من كل عاداته الانفصالية القديمة، ويتهيّأ لبناء عالمٍ جديدٍ، متوحّدٍ بضربات القلوب الخافقة بالحبّ.

اختفى كلُّ شيء من حولي فجأةً، وأنا أَشْعر بلسعة من البرد تسري في بدني مع هبوب موجة من الريح. وأحسستُ بنفسي منحنيًا بجانب السيارة لتغيير إطارها المعطوب. عندما أمسكتُ بالصواميل المعدنية الصغيرة، وجدتُها مشحونةً ببرودة لاسعة. ورأيتُ الغيوم تنعقد في السماء، والجوّ يميل إلى الرطوبة القارصة، ويتوهّج في أحشائه المترامية جمالٌ ساحرٌ مخبوء.

الجيزة